قصة من الأدب الروسي : (١)

حبة من القمح كبيضة الدجاج!

للفيلسوف الروسي ليو تولستوي

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسي

بينما الصبية في لهوهم يعبثون ذات يوم . . عثر أحدهم في ثلمة في الأرض على شيء عجيب فيه مشابه من حبة القمح . . بيد أنه كبير في حجمه حتى كاد أن يدانى بيضة الدجاجة ! ! .

ومر بهم — وقد استخفهم المرح وملكهم الفرح بلقيتهم — مسافر من جوّابي البقاع . . فلما أبصر ذلك الشيء بين أناملهم ، عوضهم عنه بفلس وحمله معه إلى المدينة . . حيث باعه للملك بمال كثير كعجيبة من العجائب التي تمخض عنها الزمن ...

فدعا الملك إلى مجلسه أهل العلم وأولي الحكمة وأرادهم على أن يأتوه بحقيقة ذلك الشيء ... فانثنى العلماء إلى كتبهم يتصفحونها ، وانقلب الحكماء إلى عقولهم يستحثونها . ولكنهم لم يحيروا لهذا الشيء معرفة لماهيته وإدراكا لحقيقته ! . . حتى كان اليوم الذي طارت فيه دجاجة إلى عتبة النافذة حيث تركت ذلك الشيء العجيب عليها . . فراحت تضرب فيه بمنقارها حتى خلفت ثقباً في جانب منه ! . ويومها أدرك العلماء أن ذلك الشيء ليس إلا حبة من القمح ! .

فلما حملوا إلى الملك ذلك النبأ . . اشتدت حيرته وتزايد عجبه وأمرهم بالبحث في أي حين من الزمن وفي أي بقعة من الأرض . كان الناس يزرعون مثل هذا القمح ! .

فعاد العلماء إلى كتبهم يقلبونها وانثنى أهل الحكمة إلى عقولهم يتروون من جديد . . ولكنهم باؤوا بمثل ما كان نصيبهم في المرة الأولى ! . فذهب إلى الملك وقد منهم . . وقال له :

— « ليس في قدرتنا الإجابة على ما تطلبه مولانا . ! فما حوت كتبنا نبأ عنه . . ولا انتهت عقولنا إلى فهم له . . ولكن في مكنة مولانا أن يسأل الفلاحين لعل بعضهم يعلم عن آبائه . . في أي حين وفي أي بقعة كان القمح يزرع في مثل هذا الحجم . ! . »

فأمر الملك أن يبعث أعوانه في أرجاء البلاد وينتشروا في مختلف ربوعها . وبأتوه ببعض الفلاحين الذين بلغوا من العمر عتياً .

فلم يلبثوا بعد حين أن فازوا ببغيتهم . . فأحضروا إلى الملك رجلا تقدمت به السنين فأحنى ظهره ثقلها . . فراح يتوكأ على دعامتين . مهروق الوجه ، شاحب اللون مهدل العارضين مفضن البشرة . .

فناوله الملك حبة القمح ... بيد أن كفافة بصره قصرت به عن رؤيتها ... فراح يتحسسها بين أنامله الجاسية . فسأله الملك :

« هل لك في أن تخبرنا ... أيها العجوز عن المكان الذي كان يزرع فيه مثل هذه القمحة ؟ ! وبئسنا إن كنت قد اشتريت أو زرعت شيئاً مثلها في حقولك ؟ ! ... »

كان يسمع الشيخ وقر جعله عاجزاً عن الإصغاء إلى ما قاله الملك ... بيد أنه لم يلبث أن أدركه في مشقة وجهد . فقال بعد أن مكث حيناً لا ينبس :

— « كلا ... إني لم أزرع ولم أحصد قط مثلها في حقلي . كما أني لم أشتر أبداً شيئاً يشبهها ... وحينما كنا نتبايع القمح كانت حبوبه صغيرة في مثل حجمها اليوم ... غير أنه يجمل بك أن تسأل أبي لعل سمعه قد وعى خبراً عن الفج الذي كانت تزرع فيه ! »

* * *

فبعث الملك رجاله في طلب والد الشيخ ... فعادوا به وهو يمشي معتمداً على عصا غليظة ... فلما ناوله الملك حبة القمح ... قلبها بين يديه ، وراح يمعن فيها النظر ، وقد عجز الكبر عن أن يذهب بحدته ! ... فسأله الملك : « أما في قدرتك أيها العجوز أن تخبرنا عن المكان الذي كان يزرع فيه مثل هذه القمحة ؟ ! وهلا أنبأتنا إن كنت قد اشتريت أو زرعت مثلها في حقولك ؟ »

لم يذهب الثقل بسمع الشيخ ، بل ما زال سمعه خيراً من

(١) من كتابنا « روائع الأدب الروسي » يصدر قريباً . جيل

سمع ولده .. فأجاب الملك فى صوت هادىء رزين :

— « كلا ! . إنى لم أزرع ولم أحصد مثلها فى حقلى ! .. كما أنى لم أشتر شيئاً يشبهها ! . فما كان للنقود تداول فى أيامنا . . فكان كل امرىء يزرع قمحة . . . وما زاد عن حاجته يهبه من فى عوز ! .

لست أدرى أين كان يزرع مثل هذا القمح . . . ولكنى أعتقد أن القمح فى عهدنا كان أكبر حجماً وأكثر دقيقاً منه فى أيامنا هذه . . . بيد أنه — مع ذلك — لم يبلغ حجم هذه القمحة . وأحسبك واجداً عند أبى فائدة وعلماً عنها ! فسله »

* * *

فأرسل الملك من يأتى بوالد الشيخ .. فغاب حيناً ، ثم عادوا به إلى حضرة الملك ! . . يسعى فى سيره فى خفة ونشاط له بصر ثاقب وسمع مرهف ... ولسان ينطق فى جلاء ! ..

فلما مد الملك له يداً بحبة القمح ... تناولها منه ... وراح يقلبها فى راحتيه . . . ويمعن فيها النظر . . ثم لم يلبث أن ارتفع صوته فى هدوء « لم أر مثل هذه القمحة إلا منذ زمن سحيق .. سحيق جداً ! . » وقضم شطراً من الحبة بثناياه ، وأخذ يتذوقها بفمه !! واستطرد فى قوله :

— « إنها نفس النوع ! ... » فسأله الملك :

— « ألا حدثنا أيها الجد الوقور ... فى أى مكان وفى أى زمان ، كان الناس يزرعون مثل هذا القمح . . . وعلا خبرتنا إن كنت قد ابتعت أو زرعت مثلها فى حقولك ؟! .. »

فأجابه الشيخ : —

... كان هذا القمح يزرع فى كل البقاع فى أيامى لقد طعمته فى شبابى ، وأطعمت غيرى منه ! . وطالما زرعناه فى أراضينا . . وحصدناه ... ودرسناه !! . »

فقال الملك وقد استبد به العجب وتملكه الفضول : —

« هل كنت تبتاعه ؟! أم كنت تزرعه بيديك ؟! »

فتريث الشيخ حيناً ... كأنه يسبر غور الماضى ، ويستعيد ذكراه — وقد ضرب النسيان عليها سجفه وأرخى دونها ستوله — ثم أجابه : « لم يكن ثمت واحد .. فى أيامى .. يجسر على أن يأتى هذه الخطيئة .. أن يبيع أو يشترى الخبز .. ولم تكن ندرى شيئاً عن هذه النقود التى تتداولونها الآن . . فكان لكل امرىء كفايته من القمح والزاد ! . »

— بالله خبرنى أين توجد أراضيك حيث كنت تزرع فيها ذلك القمح ؟! . »

فتبسم الشيخ وأجابه فى هدوء :

— « كان حقلى هو « أرض الله » الواسعة ... أينما زرعت وحيثما غرست فهذا حقلى ... فكانت الأرض مباحة طليقة بين الناس ! . وما كنت تجد واحداً يجرؤ على القول بأن هذه الأرض ملكه .. بل العمل هو وحده الذى كان ملكاً للناس » :

- « علا أجبتنى أيها الجد الكريم .. إلى سؤالين آخرين؟

أولهما : لماذا كانت الأرض تنبت مثل هذا القمح ، ثم لماذا كفت عن إخراجه الآن ؟ !! . .

وثانيهما : ما العلة فى أن حفيدك لا يخطو إلا على دعامتين وابنك يتوكأ على عصا واحدة . أما أنت فلا تعتمد على شىء ؟! وما الذى جعلك ذا بصر ثاقب وسمع مرهف وصوت واضح جلى تهفو الأذن لسماعه ؟ ! »

فهز الشيخ رأسه ، وما زالت البسمة مترسمة على شفتيه وقال:

— « لقد صار الأمر إلى هذه الحال .. لأن الناس كفوا عن العيش بما تعمله أيديهم ، وراحوا يسخرون غيرهم لعمل ما تعوزهم الحاجة إليه ! .

فى أيامنا الخوالى . . كان الناس يعيشون حسب ما سنته لهم شريعة « الله » .. « العامل بعمله » ! . فلم تملأ الضغائن نفوسهم ولم تفسد الأحقاد قلوبهم .. ولم يكن بينهم من ينظر بعين الحسد إلى ما متع الله به بعضاً منهم ! . . »

(طنطا) مصطفى جميل مرسى

اطلب نسختك من كتاب
فى أصـــول الأدب
من جميع المكتبات الشهيرة

مطبعة الرسالة : تقـــدم فى أوائل نوفمبر

ابراهـــام لنـــكولن

للأستاذ

محمود الخفيف

بحث واف فى قرابة ٣٥٠ صفحة من القطع الكبير

دراسة مفصلة للحرية والديمقراطية والعصامية

فى تاريخ هذه الشخصية العـــالمية الكبرى

لنكولن ابن الغابة ... لنكولن الرئيس ... الحرب الأهلية

وكيف حفظ الرئيس بها بناء الوحدة ؟... لنكولن المحرر الأكبر للعبيد

يا شباب الوادى : خذوا معانى العظمة فى نسقها الأعلى

من ســـيرة هـــذا العصامى العظيم

مصلحة سكك حـــديد الحكومة

إعـــلان

تعلن مصلحة السكك الحديدية الجمهور بأن السفر فى قطاراتها غير مقيد بأى شرط فى المناطق التى تسير فيها قطاراتها وتنصح المصلحة الجمهور الراغب فى السفر أن يحصل على شهادة تطعيم ضد الكوليرا معتمدة من وزارة الصحة حتى لا يفاجأ فى المستقبل بتعطيل انتقاله إذا ما قررت وزارة الصحة تقييد السفر بضرورة حصوله على هذه الشهادة .

أما السفر إلى الوجه القبلى ابتداء من يوم ٢٧ أكتوبر الحالى فمقصور على حملة شهادة التطعيم المعتمدة من وزارة الصحة .

المدير العام

مطبعة الرسالة